كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف هممهم إلى مؤانسته وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته وحقر في قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجاري فكرته فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى في خلوته واستوحش بذلك عن الأنس بالإنس وإن كان من أخص خاصته والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحابته سادة الحق وأئمته أما بعد فإن للناس اختلافا كثيرا في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إلى إليها وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه في كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم ويحصل ذلك برسم بابين الباب الأول في نقل المذاهب والحجج فيها الباب الثاني في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل الباب الأول في نقل المذاهب والأقاويل وذكر حجج الفريقين في ذلك أما المذاهب فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم وداود الطائي وفضيل بن عياض وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي وبشر الحافي وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار المعارف والإخوان والتألف والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاونا على البر والتقوى ومال إلى هذا سعيد بن المسيب والشعبي وابن أبي ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وشريح وشريك بن عبد الله وابن عيينة وابن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل وجماعة والمأثور عن العلماء

من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل فلننقل الآن مطلقات تلك الكلمات لنبين المذاهب فيها وما هو مقرون بذكر العلة نورده عند التعرض للغوائل والفوائد فنقول قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال خذوا بحظكم من العزلة وقال ابن سيرين العزلة عبادة وقال الفضيل كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا وقيل اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي عظني قال صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الأسد وقال الحسن رحمه الله كلمات أحفظهن من التوراة قنع ابن آدم فاستغنى اعتزل الناس فسلم ترك الشهوات فصار حرا وترك الحسد فظهرت مروءته صبر قليلا فتمتع طويلا وقال وهيب ابن الورد بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار ما أصبرك على الوحدة وقد كان لزم البيت فقال كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا كنت أجالس الناس ولا أكلمهم وقال سفيان الثوري هذا وقت السكوت وملازمة البيوت وقال بعضهم كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا سبعا لا نسمع له كلاما فقلنا له يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا فأنشأ يقول قليل الهم لا ولد يموت ولا أمر يحاذره يفوت قضى وطر الصبا وأفاد علما فغايته التفرد والسكوت وقال إبراهيم النخعي لرجل تفقه ثم اعتزل وكذا قال الربيع بن خثيم وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطي الإخوان حقوقهم فترك ذلك واحدا واحدا حتى تركها كلها وكان يقول لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر له وقيل لعمر بن عبد العزيز لو تفرغت لنا فقال ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى وقال الفضيل إني لأجد للرجل عندي يدا إذا لقيني أن لا يسلم علي وإذا مرضت أن لا يعودني وقال أبو سليمان الداراني

بينما الربيع ابن خثيم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه فجعل يمسح الدم ويقول لقد وعظت يا ربيع فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لزما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها حتى ماتا بالعقيق وقال يوسف بن أسباط سمعت سفيان الثوري يقول والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة وقال بشر بن عبد الله أقل من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلا ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له ألك حاجة قال نعم قال وما هي قال أن لا تراني ولا أراك ولا تعرفني وقال رجل لسهل أريد أن أصحبك فقال إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر قال الله قال فليصحبه الآن وقيل للفضيل إن عليا ابنك يقول لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يروني فبكى الفضيل وقال يا ويح علي أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يروني وقال الفضيل أيضا من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه وقال ابن عباس رضي الله عنهما أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا ترى فهذه أقاويل المائلين إلى العزلة ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها احتج هؤلاء بقوله تعالى ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا الآية وبقوله تعالى فألف بين قلوبكم أمتن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات والعزلة لا تنافي ذلك واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف حديث المؤمن إلف مألوف الحديث تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتنع بسببه المؤالفة ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلبا للسلامة من غيره واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم من فارق الجماعة شبرا خلع ربقة الإسلام من عنقه وقال من فارق الجماعة فمات فميتته جاهلية حديث من ترك الجماعة فمات فميتته جاهلية أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام وبقوله صلى الله عليه وسلم من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حديث من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربقة الإسلام أخرجه الطبراني والخطابي في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد وهذا ضعيف لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة فالخروج عليهم بغي وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم وذلك محظور لاضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر فالمخالفة تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة واحتجوا بنهيه صلى الله عليه وسلم عن الهجر فوق ثلاث إذ قال من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار حديث من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح وقال صلى الله عليه وسلم لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة حديث لا يحل لامرئ أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة متفق عليه من حديث أنس دون قوله والسابق بالصلح زاد فيه الطبراني والذي يبدأ بالصلح يسبق إلى الجنة وقال من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه حديث من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه أخرجه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حدرد بن أبي حدرد وإسناده صحيح قالوا والعزلة هجرة بالكلية وهذا ضعيف لأن المراد به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضب مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين أحدهما أن يرى فيه إصلاحا للمهجور في الزيادة الثاني أن يرى لنفسه سلامة فيه والنهي وإن كان عاما فهو محمول على ما وراء الموضعين المخصوصين بدليل ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر حديث أنه صلى الله عليه وسلم هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر قلت إنما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح وروي عن عمر أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا وصعد إلى غرفة

له وهي خزانته فلبث تسعا وعشرين يوما فلما نـزل قيل له إنك كنت فيها تسـعا وعشـرين فقال الشهر قد يكون تسعا وعشرين حديث عمر أنه صلى الله عليه وسلم اعـتزل نسـاءه وآلى منهن شـهرا الحـديث متفق عليه وروت عائشة رضي الله عنها أن النـبي صـلى الله عليه وسلم قال لا يحل لمسـلم أن يهجر أخـاه فـوق ثلاثة أيـام إلا أن يكـون ممن لا تـؤمن بوائقه حـديث عائشة لا يحل لمسـلم أن يهجر أخـاه فـوق ثلاث إلا أن يكـون ممن لا يـأمن بوائقه أخرجه ابن عـدي وقـال غـريب المتن والإسـناد وحـديث عائشة عند أبي داود دون الاستثناء بإسناد صحيح فهذا صريح في التخصيص وعلى هذا يـنزل قـول الحسن رحمه الله حيث قـال هجـران الأحمق قربة إلى الله فـإن ذلك يـدوم إلى المـوت إذ الحماقة لا ينتظر علاجها وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلا حتى مات فقال هـذا شـيء قـدم تقدم فيه قوم سعد بن أبي وقاص كان مهاجرا لعمار بن ياسر حتى مات وعثمان بن عفان كان مهاجرا لعبد الرحمن بن عوف وعائشة كـانت مهـاجرة لحفصة وكـان طـاوس مهـاجرا لوهب بن منبه حتى ماتا وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهـاجرة واحتجـوا بما روي أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم في بعض مواطن الإسلام خـير له من عبـادة أحـدكم وحـده أربعين عاما حـديث أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجىء به إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسلم فقال لا تفعل الحديث أخرجه البيهقي من حديث عسعس ابن سلامة قـال ابن عبد البر يقولون إن حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التـابعين والظـاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسـلام بـدليل ما روى عن أبي هريـرة رضي الله عنه أنه قـال غزونا مع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء فقال واحد من القوم لو اعتزلت الناس في هذا الشـعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم فقـال صـلى الله عليه وسـلم لا تفعل فإن مقام أحدكم في سـبيل الله خـير من صـلاته في أهله سـتين عاما ألا تحبـون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة اغزوا في سبيل الله فإنه من قاتل في سبيل الله فواق ناقة أدخله الله الجنة حـديث أبي هريـرة غزونا على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء غزيـرة فقـال واحد من القـوم لو اعـتزلت النـاس في هذا الشعب الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والحاكم وقال صـحيح على شـرط مسلم إلا أن الترمذي قال سبعين عاما واحتجوا بما روى معـاذ بن جبل أنه صـلى الله عليه وسلم قال إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة وإيـاكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد حديث معاذ بن جبل الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصـية أخرجه أحمد والطـبراني ورجاله ثقـات إلا أن فيه انقطاعا وهـذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمـام الغلم وسـيأتي بيـان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضـرورة ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبـراهيم عليه السـلام وأعــتزلكم وما تــدعون من دون الله وأدعو ربي الآية ثم قــال تعــالى فلما اعــتزلهم وما يعبــدون من دون الله وهبنا له إسـحق ويعقــوب وكلا جعلنا نبيا إشـارة إلى أن ذلك ببركة العزلة وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين وعند اليأس من إجـابتهم فلا وجه إلا هجــرهم وإنما الكلام في مخالطة المســلمين وما فيها من البركة لما روى أنه قيل يا رسـول الله الوضـوء من جر مخمر أحب إليك أو من هـذه المطـاهر الـتي يتطهر منها الناس فقال بل من هذه المطاهر التماسا لبركة أيدي المسلمين حديث قيل له صلى الله عليه وسـلم الوضـوء من جر مخمر أحب إليك أو من هـذه المطـاهر الـتي يطهر منها الناس فقال بل من هذه المطـاهر الحـديث أخرجه الطـبراني في الأوسط من حـديث ابن عمر وفيه ضعف وروي أنه صـلى الله عليه وسـلم لما طـاف بـالبيت عـدل إلى زمـزم ليشرب منها فإذا التمر المنقع في حياض الأدم وقد مغثه الناس بأيديهم وهم يتنـاولون منه ويشـربون فاستسـقى منه وقـال اسـقوني فقـال العبـاس إن هـذا النبيذ شـراب قد مغث وخيض بالأيدي أفلا آتيك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر في البيت فقال اسقوني من هذا الذي يشرب منه النـاس ألتمس بركة أيـدي المسـلمين فشـرب منه حـديث لما طـاف بــالبيت عــدل إلى زمــزم يشــرب منها فــإذا التمر منقع في حيــاض الأدم قد مغثه النــاس

بأيديهم الحديث وفيه فقال اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس رواه الأزرقي في تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طاوس مرسلا نحوه فإذن كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم واحتجوا أيضا بقول موسى عليه السلام وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون وأنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم وقال تعالى في أصحاب الكهف وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته أمرهم بالعزلة وقد اعتزل نبينا صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة حديث اعتزاله صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى الحبشة الحديث رواه موسى بن عقبة في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب مرسلا ورواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن شهاب علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام مرسلا أيضا ووصله من رواية أبي سلمة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بني هاشم في الشعب وذكر موسى بن عقبة أن أبا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ومغازي موسى بن عقبة أصح المغازي وذكر موسى بن عقبة أيضا أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة ولأبي داود من حديث أبي موسى أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن ننطلق إلى أرض النجاشي قال البيهقي وإسناده صحيح ولأحمد من حديث ابن مسعود بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي وروى ابن إسحاق بإسناد جيد ومن طريقه البيهقي في الدلائل من حديث أم سلمة إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده الحديث ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلمته وهذا أيضا اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار وإنما النظر في العزلة من المسلمين واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعبدالله بن عامر الجهني لما قال يا رسول الله ما النجاة قال ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابك على خطيئتك وروى أنه قيل له صلى الله عليه وسلم أي الناس أفضل قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى قيل ثم من قال رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره وقال صلى الله عليه وسلم إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي حديث إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر فأما قوله لعبد الله بن عامر فلا يمكن تنزيله إلا على ما عرفه صلى الله عليه وسلم بنور النبوة من حاله وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك ورب شخص تكون سلامته في العزلة لا في المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم حديث الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي الصحابي قال شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد وعلى هذا ينزل قوله صلى الله عليه وسلم رجل معتزل يعبد ربه ويدع الناس من شره فهذا إشارة إلى شرير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته وقوله إن الله يحب التقي الخفي إشارة إلى إيثار الخمول وتوقي الشهرة وذلك لا يتعلق بالعزلة فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس وكم من مخالط خامل لا ذكر له ولا شهرة فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة واحتجوا بما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ألا أنبئكم بخير الناس قالوا بلى يا رسول الله فأشار بيده نحو المغرب وقال رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده وأشار بيده نحو الحجاز وقال رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس حديث ألا أنبئكم بخير الناس قالوا بلى قال فأشار بيده نحو المغرب وقال رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه الحديث أخرجه الطبراني

من حديث أم مبشر إلا أنه قال نحو المشرق بدل المغـرب وفيه ابن إسـحاق رواه بالعنعنة وللترمذي والنسائي نحوه مختصرا من حديث ابن عباس قال الترمـذي حـديث حسن فـإذا ظهر أن هـذه الأدلة لا شـفاء فيها من الجـانبين فلا بد من كشف الغطـاء بالتصـريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقايسة بعضـها بـالبعض ليتـبين الحق فيها البـاب الثـاني في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضـلها اعلم أن اختلاف النـاس في هـذا يضـاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة وقد ذكرنا أن ذلك يختلف بـاختلاف الأحـوال والأشـخاص بحسب ما فصـلناه من آفـات النكـاح وفوائـده فكـذلك القـول فيما نحن فيه فلنـذكر أولا فوائد العزلة وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصــيل الطاعــات في الخلوة والمواظبة على العبـادة والفكر وتربية العلم وإلى تخلص من ارتكـاب المنـاهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر ومسـارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمـال الخبيثة من جلسـاء السـوء وأما الدنيوية فتنقسم إلى ما يمكن من التحصـيل بـالخلوة كتمكن المحـترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة كـالنظر إلى زهـرة الـدنيا وإقبـال الخلق عليها وطمعه في الناس وطمع الناس فيه وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذي بسوء خلق الجليس في مرائه أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذي بثقله وتشـويه خلقته وإلى هـذا ترجع مجـامع فوائد العزلة فلنحصـرها في ست فوائد الفائـدة الأولى التفـرغ للعبـادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعـالى عن مناجـاة الخلق والاشـتغال باستكشـاف أسـرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض فـإن ذلك يسـتدعي فراغا ولا فراغ مع المخالطة فالعزلة وسيلة إليه ولهذا قـال بعض الحكمـاء لا يتمكن أحد من الخلـوة إلا بالتمسك بكتـاب الله تعـالى والمتمسـكون بكتـاب الله تعـالى هم الـذين اسـتراحوا من الدنيا بذكر الله الذاكرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقـوا الله بـذكر الله ولا شك في أن هـؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والـذكر فالعزلة أولى بهم ولـذلك كـان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قـوي فيه نـور النبوة حديث كـان صـلى الله عليه وسـلم في أول أمـره يتبتل في جبل حـراء وينعـزل إليه متفق عليه من حديث عائشة نحوه فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الحـديث فكـان الخلق لا يحجبونه عن الله فكـان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلا على الله تعـالى حـتى كـان النـاس يظنون أن أبا بكر خليله فأخبر النبي صلى الله عليه وسـلم عن اسـتغراق همه بالله فقـال لو كنت متخذا خليلا لاتخـذت أبا بكر خليلا ولكن صـاحبكم خليل الله حـديث لو كنت متخـذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله أخرجه مسـلم من حـديث ابن مسـعود وقد تقدم ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهرا والإقبال على الله سرا إلا قوة النبوة فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأوليـاء إليه فقد نقل عن الجنيد أنه قال أنا أكلم الله منذ ثلاثين سـنة والنـاس يظنـون أني أكلمهم وهذا إنما يتيسر للمسـتغرق بحب الله اسـتغراقا لا يبقى لغـيره فيه متسع وذلك غـير منكر ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس ببدنه وهو لا يدري ما يقـول ولا ما يقـال له لفرط عشقه لمحبوبه بل الذي دهاه ملم يشوش عليه أمرا من أمـور دنيـاه فقد يسـتغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصـواتهم لشـدة اسـتغراقه وأمر الآخـرة أعظم عند العقلاء فلا تسـتحيل ذلك فيه ولكن الأولى بـالأكثرين الاسـتعانة بالعزلة ولـذلك قيل لبعض الحكمـاء ما الـذي أرادوا بـالخلوة واختيـار العزلة فقـال يسـتدعون بـذلك دوام الفكرة وتثبت العلـوم في قلـوبهم ليحيـوا حيـاة طيبة ويـذوقوا حلاوة المعرفة وقيل لبعض الرهبـان ما أصـبرك على الوحـدة فقـال ما أنا وحـدي أنا جليس الله تعـالى إذا شـئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت وقيل لبعض الحكماء إلى أي شــيء أفضى بكم الزهد والخلوة فقـال إلى الأنس بالله وقـال سـفيان بن عيينة لقيت إبـراهيم ابن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له يا إبراهيم تركت خراسـان فقـال ما تهنـأت بـالعيش إلا ههنا أفر بديني من شاهق إلى شاهق فمن يراني يقـول موسـوس أو حمـال أو ملاح وقيل لغــزوان الرقاشي هبك لا تضـحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك قـال إني أصــيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي وقيل للحسن يا أبا سعيد ههنا رجل لم تـره قط جالسا

إلا وحده خلف سارية فقال الحسن إذا رأيتموه فأخبروني به فنظروا إليه ذات يـوم فقـالوا للحسن هذا الرجل الذي أخبرناك به وأشـاروا إليه فمضى إليه الحسن وقـال له يا عبد الله أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة النـاس فقـال أمر شـغلني عن النـاس قال فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الـذي يقـال له الحسن فتجلس إليه فقـال أمر شـغلني عن النـاس وعن الحسن فقـال له الحسن وما ذاك الشـغل يرحمك الله فقـال إني أصـبح وأمسي بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعـالى على النعمة والاسـتغفار من الـذنب فقـال له الحسن أنت يا عبد الله أفقه عنـدي من الحسن فـالزم ما أنت عليه وقيل بينما أويس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس ما جاء بك قـال جئت لآنس بك فقال أويس ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره وقال الفضيل إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به وقلت أخلو بـربي وإذا رأيت الصـبح أدركـني اسـترجعت كراهية لقـاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي وقال عبد الله بن زيد طوبى لمن عاش في الـدنيا وعاش في الآخرة قيل له وكيف ذلك قال يناجي الله في الدنيا ويجـاوره في الآخـرة وقـال ذو النون المصري سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه وقال مالك بن دينار من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره وقال ابن المبارك ما أحب حال من انقطع إلى الله تعـالى ويـروى عن بعض الصـالحين أنه قال بينما أنا أسير في بعض بلاد الشـام إذا أنا بعابد خـارج من بعض تلك الجبـال فلما نظر إلي تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت سبحان الله تبخل علي بالنظر إليك فقال هـذا إني أقمت في هذا الجبل دهرا طويلا أعـالج قلـبي في الصـبر عن الـدنيا وأهلها فطـال في ذلك تعبي وفني فيه عمري فسـألت الله تعـالى أن لا يجعل حظي من أيـامي في مجاهـدة قلبي فسكنه الله عن الاضـطراب وألفه الوحـدة والانفـراد فلما نظـرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأول فإليك عني فإني أعوذ من شرك برب العـارفين وحـبيب القـانتين ثم صـاح واغماه من طول المكث في الدنيا ثم حول وجهه عني ثم نفض يديه وقال إليك عني يا دنيا لغـيري فتزيـني وأهلك فغـري ثم قـال سـبحان من أذاق قلـوب العـارفين من لـذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان وجمع همهم في ذكره فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته ثم مضى وهو يقول قدوس قدوس فإذا في الخلـوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل وإني لأستغشي وما بي غشوة لعل خيالا منك يلقى خياليا وأخرج من بين الجلوس لعلـني أحـدث عنك النفس بالسر خاليا ولذلك قال بعض الحكماء إنما يستوحش الإنسـان من نفسه لخلو ذاته عن الفضـيلة فيكـثر حينئذ ملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم فـإذا كـانت ذاته فاضـلة طلب الوحـدة ليسـتعين بها على الفكـرة ويسـتخرج العلم والحكمة وقد قيل الاسـتئناس من علامات الإفلاس فإذا هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخـواص ومن يتيسر له بـدوام الـذكر الأنس بالله أو بـدوام الفكر التحقق في معرفة الله فـالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة فإن غاية العبادات وثمـرة المعـاملات أن يمـوت الإنسـان محبا لله عارفا بالله ولا محبة إلا بـالأنس الحاصل بـدوام الـذكر ولا معرفة إلا بـدوام الفكر وفـراغ القلب شـرط في كل واحد منهما ولا فـراغ مع المخالطة الفائـدة الثانية التخلص بالعزلة عن المعاصي الـتي يتعـرض الإنسـان لها غالبا بالمخالطة ويسـلم منها في الخلـوة وهي أربعة الغيبة والنميمة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسـارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا أما الغيبة فإذا عـرفت من كتـاب آفـات اللسـان من ربع المهلكـات وجوهها عـرفت أن التحـرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض النـاس والتفكه بها والتنفل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلـوة فـإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى وإن سـكت كنت شـريكا والمسـتمع أحد المغتابين وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتـاب واغتـابوك فـازدادوا غيبة إلى غيبة وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاسـتخفاف والشـتم وأما الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصـول الـدين وهو واجب كما سـيأتي بيانه في آخر هـذا الربع ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكـرات فـإن سـكت عصى الله به وإن أنكر تعـرض لأنـواع

من الضرر إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاص هي أكـبر مما نهى عنه ابتـداء وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق وقدم قـام أبو بكر رضي الله عند خطيبا وقال أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية يا أيها الذين آمنـوا عليكم أنفسـكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم وإنكم تضعونها في غـير موضـعها وإني سـمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب حديث أبي بكر إنكم تقـرءون هـذه الآية يا أيها الـذين آمنـوا عليكم أنفسـكم لا يضـركم من ضل إذا اهتـديتم وإنكم لتضـعونها في غـير موضـعها الحـديث أخرجه أصـحاب السـنن قـال الترمذي حسن صحيح وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الله ليسأل العبد حتى يقول له ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله لعبد حجته قال يا رب رجوتك وخفت النـاس حديث إن الله يسأل العبد حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر في الدنيا أن تنكره الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وهذا إذا خاف من ضـرب أو أمر لا يطـاق ومعرفة حـدود ذلك مشـكلة وفيه خطر وفي العزلة خلاص وفي الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر إثـارة للخصـومات وتحريك لغوائل الصـدور كما قيل وكم سـقت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح ومن جرب الأمر بالمعروف نـدم عليه غالبا فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه فـإذا سـقط عليه يقـول يا ليتـني تركته مـائلا نعم لو وجد أعوانا أمسـكوا الحائط حـتى يحكمه بدعامة لاسـتقام وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك وأما الريـاء فهو الـداء العضـال الـذي يعسر على الأبـدال والأوتـاد الاحـتراز عنه وكل من خالط النـاس داراهم ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعـوا فيه وهلك كما هلكـوا وأقل ما يلـزم فيه النفـاق فإنك إن خـالطت متعـاديين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صـرت بغيضا إليهما جميعا وإن جاملتهما كنت من شرار الناس وقال صـلى الله عليه وسـلم تجـدون من شـرار النـاس ذا الـوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه حديث تجـدون من شـرار النـاس ذا الـوجهين متفق عليه من حديث أبي هريرة وقال صلى الله عليه وسـلم إن من شر النـاس ذا الـوجهين يـأتي هـؤلاء بوجه وهـؤلاء بوجه حـديث إن من شر النـاس ذا الـوجهين أخرجه مسـلم من حـديث أبي هريرة وهو الـذي قبله وأقل ما يجب في مخالطة النـاس إظهـار الشـوق والمبالغة فيه ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة وإظهار الشـفقة بالسـؤال عن الأحـوال بقولك كيف أنت وكيف أهلك وأنت في الباطن فـارغ القلب من همومه وهـذا نفـاق محض قـال سـري لو دخل أخ لي فسـويت لحيـتي بيـدي لدخوله لخشـيت أن أكتب في جريـدة المنافقين وكان الفضيل جالسا وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له ما جـاء بك قـال المؤانسة يا أبا علي فقـال هي والله بالمواحشة أشـبه هل تريد إلا أن تـتزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك إما أن تقـوم عـني أو أقـوم عنك وقـال بعض العلمـاء ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لا يشعر به ودخل طاوس على الخليفة هشام فقال كيف أنت يا هشام فغضب عليه وقـال لم لم تخـاطبني بـأمير المؤمـنين فقـال لأن جميع المسـلمين ما اتفقـوا على خلافتك فخشـيت أن أكـون كاذبا فمن أمكنه أن يحـترز هـذا الاحـتراز فليخالط الناس وإلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين فقد كان السلف يتلاقـون ويحـترزون في قـولهم كيف أصـبحت وكيف أمسـيت وكيف أنت وكيف حالك وفي الجـواب عنه فكـان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا قال حاتم الأصم لحامد اللفـاف كيف أنت في نفسك قـال سـالم معـافى فكـره حـاتم جوابه وقـال يا حامد السـلامة من وراء الصـراط والعافية في الجنة وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت قـال أصـبحت لا أملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحاذر وأصبحت مرتهنا بعملي والخـير كله في يد غيري ولا فقير أفقر مني وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له كيف أصـبحت قـال أصـبحت من ضعفاء مـذنبين نسـتوفي أرزاقنا وننتظر آجالنا وكـان أبو الـدرداء إذا قيل له كيف أصـبحت قال أصبحت بخير إن نجوت من النار وكان سفيان الثـوري إذا قيل له كيف أصبحت يقـول أصـبحت أشـكر ذا إلى ذا وأذم ذا إلى ذا وأفر من ذا إلى ذا وقيل لأويس القـرني كيف أصبحت قال كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يـدري أنه يصبح وإذا أصبح لا يـدري أنه يمسي وقيل لمالك بن دينار كيف أصبحت قـال أصـبحت في عمر ينقص وذنـوب تزيد وقيل لبعض

الحكماء كيف أصبحت قال أصبحت لا أرضى حياتي لمماتي ولا نفسي لربي وقيل لحكيم كيف أصبحت قال أصبحت آكل رزق ربي وأطيع عدوه إبليس وقيل لمحمد بن واسع كيف أصبحت قال ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة وقيل لحامد اللفاف كيف أصبحت قال أصبحت أشتهي عافية يوم إلى الليل فقيل له ألست في عافية في كل الأيام فقال العافية يوم لا أعصي الله تعالى فيه وقيل لرجل وهو يجود بنفسه ما حالك فقال وما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ويدخل قبرا موحشا بلا مؤنس وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة وقيل لحسان ابن أبي سنان ما حالك قال ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب وقال ابن سيرين لرجل كيف حالك فقال وما حال من عليه خمسمائة درهم دينا وهو معيل فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه وقال خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك ولم يكن عنده غيرها ثم قال والله لا أسأل أحدا عن حاله أبدا وإنما فعل ذلك لأنه خشي أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرائيا منافقا فقد كان سؤالهم عن أمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة وقال بعضهم إني لأعرف أقواما كانوا لا يتلاقون ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه وأرى الآن أقواما يتلاقون ويتساءلون حتى عن الدجاجة في البيت ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت ويقول الآخر كيف أنت فالسائل لا ينتظر الجواب والمسئول يشتغل بالسؤال ولا يجيب وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال قال الحسن إنما كانوا يقولون السلام عليكم إذا سلمت والله القلوب وأما الآن فكيف أصبحت عافاك الله كيف أنت أصلحك الله فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة فإن شاءوا غضبوا علينا وإن شاءوا لا وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك كيف أصبحت بدعة وقال رجل لأبي بكر بن عياش كيف أصبحت فما أجابه وقال دعونا من هذه البدعة وقال إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون ويلقاه عشية فيقول كيف أمسيت والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق وكل ذلك مذموم بعضه محظور وبعضه مكروه وفي العزلة الخلاص من ذلك فإن من لقي الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منكرا عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له وإنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع من يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتماما للاقتداء ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة حديث عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ليس له أصل في الحديث المرفوع وإنما هو من قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزي في مقدمة صفوة الصفوة وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه وهو انبعاث

الرغبة من القلب وحركة الحــرص على الاقتــداء بهم والاســتنكاف عما هو ملابس له من القصـور والتقصـير ومبـدأ الرحمة فعل الخـير ومبـدأ فعل الخـير الرغبة ومبـدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين فهـذا معـنى نـزول الرحمة والمفهـوم من فحـوى هـذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كـثرة ذكـرهم تهـون على الطبع أمر المعاصي واللعنة هي البعد ومبدأ البعد من الله هو المعاصي والإعراض عن الله بالإقبــال على الحظــوظ العاجلة والشــهوات الحاضــرة لا على الوجه المشــروع ومبــدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشـها عن القلب ومبـدأ سـقوط الثقل وقـوع الأنس بها بكـثرة السماع إذا كان هـذا حـال ذكر الصـالحين والفاسـقين فما ظنك بمشـاهدتهم بل قد صـرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قـال مثل الجليس السـوء كمثل الكـير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه حـديث مثل الجليس السـوء كمثل الكـير الحـديث متفق عليه من حديث أبي موسى فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به وقال مثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه ولهذا أقول من عرف من عـالم زلة حـرم عليه حكايتها لعلـتين إحـداهما أنها غيبة والثانية وهي أعظمهما أن حكايتها تهون على المسـتمعين أمر تلك الزلة ويسـقط من قلوبهم استعظامهم الإقـدام عليها فيكـون ذلك سـببا لتهـوين تلك المعصـية فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقـدم عليه عـالم ولا يتعاطـاه موفق معتـبر لشق عليه الإقـدام فكم من شـخص يتكـالب على الـدنيا ويحـرص عل جمعها ويتهالك على حب الرياسة وتزيينها ويهـون على نفسه قبحها ويـزعم أن الصـحابة رضي الله عنهم لم يـنزهوا أنفسـهم عن حب الرياسة وربما يستشـهد عليه بقتـال علي ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة فهــذا الاعتقــاد خطأ يهــون عليه أمر الرياسة ولوازمها من المعاصي والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعـراض عن الحسـنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكايد الشيطان ولذلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله الذين يسـتمعون القـول فيتبعون أحسنه وضرب صـلى الله عليه وسـلم لـذلك مثلا وقـال مثل الـذي يجلس يسـتمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يستمع كمثل رجل أتى راعيا فقال له يا راعي اجرر لي شاة من غنمك فقال اذهب فخذ خير شاة فيها فذهب عليه السلام فأخذ بأذن كلب الغنم حديث مثل الـذي يسـمع الحكمة ثم لا يحمل منها إلا شر ما يسـمع كمثل رجل أتى راعيا فقـال يا راعي اجــرر لي شــاة من غنمك الحـديث أخرجه ابن ماجه من حـديث أبي هريــرة بســند ضعيف وكل من ينقل هفوات الأئمة فهـذا مثاله أيضا ومما يـدل على سـقوط وقع الشـيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر في نهـار رمضـان اسـتبعدوا ذلك منه اسـتبعادا يكـاد يفضي إلى اعتقـادهم كفـره وقد يشـاهدون من يخـرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصـوم مع أن صـلاة واحـدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم وتـرك صـوم رمضـان كله لا يقتضـيه ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب ولـذلك لو لبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب أو شـرب من إنـاء فضة اسـتبعدته النفوس واشتد إنكارها وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للنــاس ولا يســتبعد منه ذلك والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكــون أشد من لبس الحرير ولكن كــثرة ســماع الغيبة ومشــاهدة المغتــابين أســقط وقعها عن القلــوب وهــون على النفس أمرها فتفطن لهذه الدقائق وفر من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشــاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهـون عليك المعصـية ويضـعف رغبتك في الطاعة فإن وجدت جليسا يذكرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحـدة خـير من الجليس السوء ومهما فهمت هذه المعاني ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد بالعزلة أو التقـرب إليه بالخلطة وإيـاك أن تحكم مطلقا على العزلة أو الخلطة بـأن إحـداهما أولى إذ كل مفصل فـإطلاق القــول فيه بلا أو

نعم خلف من القــول محض ولا حق في المفصل إلا التفصــيل الفائــدة الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعـرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد عن تعصــبات وفتن وخصــومات فــالمعتزل عنهم في ســلامة منها قــال عبد الله بن عمرو بن العاص لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسـلم الفتن ووصـفها وقـال إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكـانوا هكـذا وشـبك بين أصـابعه قلت فما تـأمرني فقال الزم بيتك واملك عليك لسـانك وخذ ما تعـرف ودع ما تنكر وعليك بـأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة حـديث عبد الله بن عمـرو بن العـاص إذا رأيت النـاس مـرجت عهـودهم وخفت أماناتهم الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن وروى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال يوشك أن يكون خـير مـال المسـلم غنما يتبع بها شـعف الجبـال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شـاهق إلى شـاهق حـديث أبي سعيد الخدري يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن رواه البخـاري وروى عبد الله ابن مسـعود أنه صـلى الله عليه وسـلم قال سيأتي على النـاس زمـان لا يسـلم لـذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شـاهق إلى شـاهق ومن جحر إلى جحر كـالثعلب الــذي يـروغ قيل له ومـتى ذلك يا رسـول الله قـال إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي الله تعـالى فـإذا كـان ذلك الزمـان حلت العزوبة قالوا وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج قال إذا كـان ذلك الزمـان كـان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده فإن لم يكن فعلى يـدي قرابته قـالوا وكيف ذلك يا رسـول الله قـال يعيرونه بضـيق اليد فيتكلف ما لا يطيق حـتى يورده ذلك موارد الهلكة حديث ابن مسـعود سـيأتي على النـاس زمـان لا يسـلم لـذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شـاهق إلى شـاهق تقـدم في النكـاح وهـذا الحــديث وإن كــان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يســتغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى ولست أقـول هـذا أو أن ذلك الزمـان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ولأجله قال سـفيان والله لقد حلت العزلة وقـال ابن مسعود رضي الله عنه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيـام الهـرج قلت وما الهرج قال حين لا يـأمن الرجل جليسه قلت فبم تـأمرني إن أدركت ذلك الزمـان قـال كف نفسك ويــدك وادخل دارك قــال قلت يا رســول الله أرأيت إن دخل على داري قــال فادخل بيتك قلت فإن دخل على بيتي قال فادخل مسجدك واصنع هكذا وقبض على الكوع وقل ربي الله حتى تموت حديث ابن مسعود ذكر رسول الله صلى الله عليه وســلم الفتنة وأيــام الهــرج قلت وما الهــرج قــال حين لا يـأمن الرجل جليسه الحـديث أخرجه أبو داود مختصرا والخطابي في العزلة بتمامه وفي إسـناده عند الخطـابي انقطـاع ووصـله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته وقال سعد لما دعي إلى الخروج أيـام معاوية لا إلا أن تعطوني سيفا له عينان بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبـالمؤمن فـأكف عنه وقال مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء فبينما هم كـذلك يسـيرون إذ هـاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم فقـال بعضـهم الطريق ذات اليمين فأخـذوا فيها فتاهوا وضلوا وقال بعضهم ذات الشمال فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا وأنـاخ آخـرون وتوقفـوا حتى ذهبت الريح وتبينت الطريق فسـافروا فـاعتزل سـعد وجماعة معه فـارقوا الفتن ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه لما بلغه أن الحســين رضي الله عنه توجه إلى العــراق تبعه فلحقه على مســيرة ثلاثة أيــام فقــال له أين تريد فقــال العراق فإذا معه طوامير وكتب فقال هذه كتبهم وبيعتهم فقال لا تنظر إلى كتبهم ولا تـأتهم فأبى فقـال إني أحـدثك حـديثا جبريل أتى النـبي صـلى الله عليه وسـلم فخـيره بين الـدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يليها أحد منكم أبدا وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم فأبى أن يرجع فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال أستودعك الله من قتيل أو أسير حديث ابن عمر أنه لما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام الحـديث وفيه أنه صـلى الله عليه وسـلم خـير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة رواه الطبراني مقتصرا على المرفـوع رواه في الأوسط بـذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل على مسيرة ثلاثة أيام وكذا رواه البزار بنحـوه وإسـنادهما

حسن وكـان في الصـحابة عشـرة آلاف فما خف أيـام الفتنة أكـثر من أربعين رجلا وجلس طاوس في بيته فقيل له في ذلك فقال فساد الزمان وحيف الأئمة ولما بنى عـروة قصـره بـالعقيق ولزمه قيل له لـزمت القصر وتـركت مسـجد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقال رأيت مساجدكم لاهية وأسواقكم لاغية والفاحشة في فجاجكم عالية وفيما هناك عما أنتم فيه عافية فـإذن الحـذر من الخصـومات ومثـارات الفتن إحـدى فوائد العزلة الفائـدة الرابعة الخلاص من شر النــاس فــإنهم يؤذونك مــرة بالغيبة ومــرة بســوء الظن والتهمة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها وتـارة بالنميمة أو الكـذب فربما يـرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عنـدهم يـدخرونها لوقت تظهر فرصة للشر فإذا اعـتزلتهم اسـتغنيت من التحفظ عن جميع ذلك ولـذلك قـال بعض الحكماء لغيره أعلمك بيتين خير من عشـرة آلاف درهم ما هما قـال اخفض الصـوت إن نطقت بليل والتفت بالنهـار قبل المقـال ليس للقـول رجعة حين يبـدو بقـبيح يكـون أو بجمــال ولا شك أن من اختلط بالنــاس وشـاركهم في أعمــالهم لا ينفك من حاسد وعــدو يسـيء الظن به ويتـوهم أنه يسـتعد لمعاداته ونصب المكيـدة عليه وتدسـيس غائلة وراءه فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر يحسـبون كل صـيحة عليهم هم العـدو فاحـذرهم وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغـيرهم إلا الحـرص عليها قـال المتنـبي إذا سـاء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم وعـادى محبيه بقـول عداته فأصبح في ليل من الشك مظلم وقد قيل معاشرة الأشرار تورث سـوء الظن بـالأبرار وأنـواع الشر الـذي يلقـاه الإنسـان من معارفه وممن يختلط به كثـيرة ولسـنا نطـول بتفصـيلها ففيما ذكرنـاه إشارة إلى مجامعها وفي العزلة خلاص من جميعها وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة فقال أبو الدرداء أخبر تقله يروى مرفوعا وقال الشاعر من حمد الناس ولم يبلهم ثم بلاهم ذم من يحمد وصار بالوحدة مستأنسا يوحشه الأقرب والأبعد وقال عمر رضي الله عنه في العزلة راحة من القرين السوء وقيل لعبد الله بن الزبير ألا تأتي المدينة فقـال ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة وقال ابن السماك كتب صـاحب لنا أما بعد فـإن النـاس كـانوا دواء يتـداوى به فصـاروا داء لا دواء له ففر منهم فـرارك من الأسد وكـان بعض الأعـراب يلازم شـجرا ويقـول هو نـديم فيه ثلاث خصـال إن سـمع مـني لم ينم علي وإن تفلت في وجهه احتمل مــني وإن عربــدت عليه لم يغضب فســمع الرشـيد ذلك فقــال زهــدني في الندماء وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر فقيل له ذلك فقال لم أر أسلم من وحدة ولا أوعظ من قـبر ولا جليسا أمتع من دفـتر وقـال الحسن رضي الله عنه أردت الحج فســمع ثابت البناني بذلك وكان أيضا من أولياء الله فقال بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك فقال له الحسن ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إني أخـاف أن نصـطحب فـيرى بعضـنا من بعض ما نتماقت عليه وهذه إشارة إلى فائـدة أخـرى في العزلة وهو بقـاء السـتر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر العورات وقد مـدح الله سـبحانه المتسـترين فقـال يحسـبهم الجاهل أغنيـاء من التعفف وقـال الشـاعر ولا عـار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عـورات الأولى في الدين والدنيا سترها ولا تبقى السلامة مع انكشافها وقال أبو الدرداء كـان النـاس ورقا لا شوك فيه فالناس اليوم شوكا لا ورق فيه إذا كان هـذا حكم زمانه وهو في أواخر القـرن الأول فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر وقال سفيان بن عيينة قال لي سـفيان الثـوري في اليقظة في حياته وفي المنــام بعد وفاته أقلل من معرفة النــاس فــإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت وقال بعضـهم جئت إلى مالك بن دينـار وهو قاعد وحده وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته فذهب أطرده فقال دعه يا هذا هــذا لا يضر ولا يؤذي وهو خير من جليس الســوء وقيل لبعضـهم ما حملك على أن تعـتزل النـاس قال خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر وهذه إشـارة إلى مسـارقة الطبع من أخلاق القــرين السوء وقال أبو الدرداء اتقوا الله واحذروا الناس فإنهم ما ركبـوا ظهر بعـير إلا أدبـروه ولا ظهر جواد إلا عقـروه ولا قلب مـؤمن إلا خربـوه وقـال بعضـهم أقلل المعـارف فإنه أسـلم لدينك وقلبك وأخف لسقوط الحقوق عنك لأنه كلما كثرت المعارف كبرت الحقــوق وعسر القيام بالجميع وقال بعضهم أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعـرف الفائـدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس فأما انقطاع طمع النـاس عنك ففيه فوائد فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ومن أهون الحقـوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الـولائم والإملاكـات وفيها تضـييع الأوقـات وتعرض للآفات ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير ولا يمكن إظهار كل الأعذار فيقولون له قمت بحق فلان وقصرت في حقنا ويصـير ذلك سـبب عـداوة فقد قيل من لم يعد مريضا في وقت العيـادة اشـتهى موته خيفة من تخجيله إذا صح على تقصـيره ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضـوا عنه كلهم ولو خصص استوحشـوا وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طـول الليل والنهـار فكيف من له مهم يشـغله في دين أو دنيا قـال عمـرو بن العـاص كـثرة الأصـدقاء كـثرة الغرمـاء وقـال ابن الـرومي عـدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب فـإن الـداء أكـثر ما تـراه يكـون من الطعـام أو الشـراب وقـال الشـافعي رحمه الله أصل كل عـداوة اصـطناع المعـروف إلى اللئـام وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائـدة جزيلة فـإن من نظر إلى زهـرة الـدنيا وزينتها تحـرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك ومهما اعتزل لم يشاهد وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله تعالى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم وقــال صــلى الله عليه وســلم انظــروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم حـديث انظـروا إلى من هو دونكم ولا تنظـروا إلى من هو فـوقكم فإنه أجـدر أن لا تـزدروا نعمة الله عليكم أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال عون بن عبد الله كنت أجالس الأغنيـاء فلم أزل مغموما كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابـتي فجالست الفقـراء فاسـترحت وحكى أن المزني رحمه الله خرج من بـاب جـامع الفسـطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهـــره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعـــالى وجعلنا بعضــكم لبعض فتنة أتصبرون ثم قال بلى أصبر وأرضى وكان فقيرا مقلا فالـذي هو في بيته لا يبتلى بمثل هـذه الفتن فـإن من شـاهد زينة الـدنيا فإما أن يقـوى دينه ويقينه فيصـبر إلى أن يتجـرع مـرارة الصـبر وهو أمر من الصـبر أو تنبعث رغبته فيحتـال في طلب الـدنيا فيهلك هلاكا مؤبـدا أما في الدنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الـدنيا تتيسر له وأما في الآخرة فإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه ولـذلك قـال ابن الأعـرابي إذا كان باب الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر أشار إلى أن الطمع يـوجب في الحـال ذلا الفائـدة السادسة الخلاص من مشـاهدة الثقلاء والحمقى ومقاسـاة حمقهم وأخلاقهم فإن رؤية الثقيل هي العمي الأصغر قيل للأعمش مم عمشت عيناك قال من النظر إلى الثقلاء ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقــال في الخــبر إن من ســلب الله كريمتيه عوضه الله عنهما ما هو خير منهما حـديث من سـلب الله كريمتيه عوضه عنهما ما هو خير منهما أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف من حديث جرير من سلبت كريمتيه عوضــته عنهما الجنة وله ولأحمد نحوه من حديث أبي أمامة بسند حسن وللبخاري من حــديث أنس يقول الله تبارك وتعـالى إذا ابتليت عبـدي بحبيبتيه ثم صـبر عوضـته منهما الجنة يريد عينيه فما الـذي عوضك فقـال في معـرض المطايبة عوضـني الله منهما أنه كفـاني رؤية الثقلاء وأنت منهم وقال ابن سيرين سمعت رجلا يقول نظـرت إلى ثقيل مـرة فغشي علي وقـال جـالينوس لكل شـيء حمى وحمى الـروح النظر إلى الثقلاء وقـال الشـافعي رحمه الله ما جالست ثقيلا إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل علي من الجانب الآخر وهـذه الفوائد ما سوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضا تتعلق بالدين فـإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه وأن يسـتنكر ما هو صـنع الله فـإذا تـأذى من غيره بغيبة أو سـوء ظن أو محاسـدة أو نميمة أو غـير ذلك لم يصـبر عن مكافأته وكل ذلك يجر إلى فساد الدين وفي العزلة سـلامة عن جميع ذلك فليفهم آفـات العزلة اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يسـتفاد بالاسـتعانة بـالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة فكل ما يسـتفاد من المخالطة يفـوت بالعزلة وفواته من آفـات العزلة فـانظر إلى فوائد المخالطة والـدواعي إليها ما هي وهي التعليم والتعلم والنفع والانتفـاع والتـأديب والتـأدب والاستيناس والإيناس ونيل الثواب وإنالته في القيـام بـالحقوق واعتيـاد التواضع واسـتفادة

التجـارب من مشـاهدة الأحـوال والاعتبـار بها فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهي ســـبع الفائـــدة الأولى التعليم والتعلم وقد ذكرنا فضـــلهما في كتـــاب العلم وهما أعظم العبادات في الدنيا ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلـوم كثـيرة وعن بعضـها مندوحة وبعضها ضروري في الدنيا فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عـاص بالعزلة وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلـوم ورأى الاشـتغال بالعبـادة فليعـتزل وإن كـان يقـدر على التـبرز في علـوم الشـرع والعقل فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسـران ولهـذا قـال النخعي وغـيره تفقه ثم اعـتزل فمن اعـتزل قبل التعلم فهو في الأكـثر مضـيع أوقاته بنوم أو فكر في هـوس وغايته أن يسـتغرق الأوقـات بـأوراد يسـتوعبها ولا ينفك في أعماله بالبـدن والقلب عن أنـواع من الغـرور يخيب سـعيه ويبطل عمله بحيث لا يـدري ولا ينفك اعتقاده في الله وصفاته عن أوهـام يتوهمها ويـأنس بها وعن خـواطر فاسـدة تعتريه فيها فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشـيطان وهو يـرى نفسه من العبـاد فـالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال أعني من لا يحسن العبـادة في الخلـوة ولا يعـرف جميع ما يلزم فيها فمثال النفس مثال مريض يحتـاج إلى طـبيب متلطف يعالجه فـالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطـبيب قبل أن يتعلم الطب تضـاعف لا محالة مرضه فلا تليق العزلة إلا بالعـالم وأما التعليم ففيه ثـواب عظيم مهما صـحت نية المعلم والمتعلم ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فهو هلاك الـدين وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم وحكم في العالم في هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه فإنه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه بل لا طالب إلا لكلام مزخرف يسـتميل به العـوام في معـرض الوعظ أو الجدل معقد يتوصل به إلي إفحام الأقران ويتقـرب به إلى السـلطان ويسـتعمل في معــرض المنافسة والمباهــاة وأقــرب علم مرغــوب فيه المــذهب ولا يطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقـدم على الأمثـال وتـولي الولايـات واجتلاب الأمـوال فهـؤلاء كلهم يقتضي الدين والحزم الاعتزال عنهم فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبـائر الاعتزال عنه وكتمان العلم منه وهذا لا يصادف في بلدة كبـيرة أكـثر من واحد أو اثـنين إن صودف ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بقول سفيان تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتـبرهم أنهم مـاتوا وهم هلكى على طلب الـدنيا ومتكـالبون عليها أو راغبـون عنها وزاهــدون فيها وليس الخــبر كالمعاينة واعلم أن العلم الــذي أشــار إليه ســفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سـير الأنبيـاء والصـحابة فـإن فيها التخويف والتحـذير وهو سـبب لإثـارة الخـوف من الله فـإن لم يـؤثر في الحـال أثر في المـآل وأما الكلام والفقه المجـرد الـذي يتعلق بفتـاوى المعـاملات وفصل الخصـومات المـذهب منه والخلاف لا يـرد الراغب فيه للدنيا إلى الله بل لا يزال متماديا في حرصه إلى آخر عمـره ولعل ما أودعنـاه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يـرخص فيه إذ يـرجى أن يـنزجر به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا وذلك مما يصــادف في الأحــاديث وتفســير القــرآن ولا يصــادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب فلا ينبغي أن يخـادع الإنسـان نفسه فـإن المقصر العـالم بتقصـيره أسـعد حـالا من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الإدلال على الجهال والتكــبر عليهم فآفة العلم الخيلاء حديث آفة العلم الخيلاء المعروف ما رواه مطين في مسنده من حديث علي بن أبي طالب بسند ضـعيف آفة العلم النسـيان وآفة الحمـال الخيلاء كما قـال صــلى الله عليه وســلم ولــذلك حكى عن بشر أنه دفن ســبعة عشر قمطــرا من كتب الأحاديث التي سمعها وكـان لا يحـدث ويقـول إني أشـتهي أن أحـدث فلـذلك لا أحـدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت ولذلك قال حدثنا باب من أبواب الدنيا وإذا قـال الرجل حـدثنا فإنما يقول أوسعوا لي وقـالت رابعة العدوية لسـفيان الثـوري نعم الرجل أنت لـولا رغبتك في الدنيا قال وفيماذا رغبت قالت في الحديث ولذلك قال أبو سليمان الداراني من تــزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا فهذه آفات قد نبهنا عليها في كتاب العلم والحزم الاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن بل الذي يطلب الدنيا

بتدريسه وتعليمه فالصواب له إن كان غافلا في مثل هذا الزمـان أن يتركه فلقد صـدق أبو سليمان الخطابي حيث قال دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مـال ولا جمال إخوان العلانية أعداء السر إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك من أتـاك منهم كـان عليك رقيبا وإذا خـرج كـان عليك خطيبا أهل نفـاق ونميمة وغل وخديعة فلا تغـتر باجتمـاعهم عليك فما غرضـهم العلم بل الجـاه والمـال وأن يتخـذوك سـلما إلى أوطـارهم وأغراضهم وحمارا في حاجاتهم إن قصرت في غرض من أغراضـهم كـانوا أشد أعـدائك ثم يعدون تـرددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لـديك ويفرضـون عليك أن تبـذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم وتنتهض لهم سفيها وقد كنت فقيها وتكـون لهم تابعا خسيسا بعد أن كنت متبوعا رئيسا ولـذلك قيل اعـتزال العامة مـروءة تامة فهـذا معـنى كلامه وإن خـالف بعض ألفاظه وهو حق وصـدق فإنك تـرى المدرسـين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يـتردد إليهم فكأنه يهـدي تحفه إليهم ويرى حقه واجبا عليهم وربما لا يختلف إليه ما لم يتكفل بـرزق له على الإدرار ثم إن المـدرس المسـكين قد يعجز عن القيـام بـذلك من ماله فلا يـزال مـترددا إلى أبـواب السلاطين ويقاسي الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين حـتى يكتب له على بعض وجـوه السحت مال حرام ثم لا يزال العامل يسترقه ويسـتخدمه ويمتهنه ويسـتذله إلى أن يسـلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصـحابه إن سوى بينهم مقته المميزون ونسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مصـارفات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بألسن حداد وثاروا عليه ثـوران الأسـاود والآسـاد فلا يـزال في مقاسـاتهم في الـدنيا وفي مطالبة ما يأخـذه ويفرقه عليهم في العقـبى والعجب أنه مع هـذا البلاء كله يمـني نفسه بالأباطيل ويـدليها بحبل الغرور ويقول لها لا تفتري عن صـنيعك فإنما أنت بما تفعلينه مريـدة وجه الله تعـالى ومذيعة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشرة علم دين الله وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله وأموال السلاطين لا مالك لها وهي مرصدة للمصالح وأي مصلحة أكـبر من تكثـير أهل العلم فبهم يظهر الـدين ويتقـوى أهله ولو لم يكن ضـحكة للشـيطان لعلم بأدنى تأمل أن فسـاد الزمـان لا سـبب له إلا كـثرة أمثـال أولئك الفقهـاء الـذين يـأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام فتلحظهم أعين الجهال ويسـتجرئون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لآثارهم ولذلك قيل ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء فنعوذ بالله من الغـرور والعمى فإنه الـداء الـذي ليس له دواء الفائدة الثانية النفع والانتفاع أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتـاج إليه مضـطر إلى تـرك العزلة فيقع في جهـاد من المخالطة أن طلب موافقة الشـرع فيه كما ذكرنـاه في كتـاب الكسب فـإن كـان معه مـال لو اكتفى به قانعا لأقنعه فالعزلة أفضل له إذا انسـدت طـرق المكاسب في الأكـثر إلى من المعاصي إلا أن يكـون غرضه الكسب للصـدقة فـإذا اكتسب من وجهه وتصـدق به فهو أفضل من العزلة للاشـتغال بالنافلة وليس بأفضل من العزلة للاشـتغال بـالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ولا من الإقبـال بكنه الهمة على الله تعـالى والتجـرد بها لـذكر الله أعـني من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة لا عن أوهام وخيالات فاسدة وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة ففي النهوض بقضـاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشـرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره ألبتة الفائدة الثالثة التأديب والتأدب ونعني به الارتيـاض بمقاسـاة النـاس والمجاهـدة في تحمل أذاهم كسرا للنفس وقهرا للشهوات وهي من الفوائد التي تسـتفاد بالمخالطة وهي أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه ولم تـذعن لحـدود الشـرع شـهواته ولهـذا انتـدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسـؤال منهم كـبرا لرعونة النفس واسـتمدادا من بركة دعـاء الصـوفية المنصـرفين بهممهم إلى الله سـبحانه وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الخالية والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن

القانون كما مالت سائر شعائر الدين فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثـير بالاسـتتباع والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكـثرة الأتبـاع فـإن كـانت النية هـذه فالعزلة خـير من ذلك ولو إلى القبر وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة وذلك مما يحتـاج إليه في بداية الإرادة فبعد حصـول الارتيـاض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضـتها بل المـراد منها أن تتخذ مركبا يقطع به المراحل ويطـوي على ظهـره الطريق والبـدن مطية للقلب يركبها ليسـلك بها طريق الآخـرة وفيها شـهوات إن لم يكسـرها جمحت به في الطريق فمن اشـتغل طـول العمر بالرياضة كـان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضـتها ولم يركبها فلا يسـتفيد منها إلا الخلاص في الحـال في عضـها ورفسـها ورمحها وهي لعمـري فائـدة مقصـودة ولكن مثلها حاصل في البهيمة الميتة وإنما تـرد الدابة لفائـدة تحصل من حياتها فكـذلك الخلاص من ألم الشـهوات في الحال يحصل بالنوم والموت ولا ينبغي أن يقنع به كالراهب الـذي قيل له يا راهب فقـال ما أنا راهب إنما أنا كلب عقور حبست نفسي حتى لا أعقر النـاس وهـذا حسن بالإضـافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه فإن من قتل نفسه أيضا لم يعقر النـاس بل ينبغي أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها ومن فهم ذلك واهتـدى إلى الطريق وقـدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة فأفضل لمثل هذا الشـخص المخالطة أولا والعزلة آخرا وأما التأديب فإنما نعني به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم وحاله حال المعلم وحكمه ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريـدين الطـالبين للارتياض أبعد منها من طلبه العلم ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبة العلم كـثرة فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخلـوة بما تيسر له من المخالطة وتهـذيب القـوم وليقابل أحـدهما بالآخر وليؤثر الأفضل وذلك يدرك بـدقيق الاجتهـاد ويختلف بـالأحوال والأشـخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفي ولا إثبـات الفائـدة الرابعة الاسـتئناس والإينـاس وهو غـرض من يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحـال وقد يكـون ذلك على وجه حـرام بمؤانسة من لا تجـوز مؤانسـته أو على وجه مبـاح وقد يستحب ذلك الأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كـالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كـان الغـرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة فإن القلوب إذا أكـرهت عميت ومهما كـان في الوحـدة وحشة وفي المجالسة أنس يـروح القلب فهي أولى إذ الوفق في العبـادة من حزم العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم إن الله لا يمل حتى تملـوا حـديث إن الله لا يمل حتى تملوا تقدم وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة وهـذا عـني بقوله صـلى الله عليه وسـلم إن هـذا الدين متين فأوغل فيه برفق والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين ولذلك قـال ابن عبـاس لولا مخافة الوسـواس لم أجـالس النـاس وقـال مـرة لـدخلت بلادا لا أنيس بها وهل يفسد الناس إلا الناس فلا يستغني المعتزل إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة ساعة فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سـائر سـاعاته فقد قـال صلى الله عليه وسلم المـرء على دين خليله فلينظر أحـدكم من يخالل حـديث المـرء على دين خليله تقـدم في آداب الصـحبة وليحـرص أن يكـون حديثه عند اللقـاء في أمـور الـدين وحكاية أحوال القلب وشـكواه وقصـوره عن الثبـات على الحق والاهتـداء إلى الرشد ففي ذلك متنفس ومـتروح للنفس فيه مجـال رحب لكل مشـغول بإصـلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة والراضي عن نفسه مغرور قطعا فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهـار ربما يكـون أفضل من العزلة في حق بعض الأشـخاص فليتفقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس أولا ثم ليجالس الفائدة الخامسة في نيل الثـواب وإنالته أما النيل فبحضـور الجنـائز وعيـادة المـريض وحضـور العيـدين وأما حضـور الجمعة فلا بد منه وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضا لا رخصة في تركه إلا لخوف ضـرر ظـاهر يقـاوم ما يفـوت من فضـيلة الجماعة ويزيد عليه وذلك لا يتفق إلا نـادرا وكـذلك في حضـور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سـرور على قلب مسـلم وأما إنالته فهو أن

يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنـوه على النعم فـإنهم ينـالون بـذلك ثوابا وكذلك إذا كان من العلماء وأذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة وكان هو بالتمكين سببا فيه فينبغي أن يزن ثـواب هـذه المخالطـات بآفاتها الـتي ذكرناها وعند ذلك قد تـرجح العزلة وقد ترجح المخالطة فقد حكي عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره تـرك إجابة الـدعوات وعيـادة المرضى وحضـور الجنـائز بل كـانوا أحلاس بيـوتهم لا يخرجـون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلل الجبال تفرغا للعبادة وفرارا من الشواغل الفائـدة السادسة من المخالطة التواضع فإنه من أفضل المقامـات ولا يقـدر عليه في الوحـدة وقد يكـون الكـبر سـببا في اختيـار العزلة فقد روي في الإسـرائيليات أن حكيما من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفا في الحكمة حتى ظن أنه قد نـال عند الله منزلة فــــأوحى الله إلى نبيه قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقا وإني لا أقبل من نفاقك شيئا قال فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقـال الآن قد بلغت رضا ربي فـأوحى الله إلى نبيه قل له إنك لن تبلغ رضـاي حـتى تخالط النـاس وتصـبر على أذاهم فخـرج فـدخل الأسواق وخالط الناس وجالسـهم وواكلهم وأكل الطعـام بينهم ومشى في الأسـواق معهم فأوحى الله تعالى إلى نبيه الآن قد بلغ رضاي فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر ومانعه عن المحافل أن لا يــوقر أو لا يقــدم أو يــرى الــترفع عن مخــالطتهم أرفع لمحله وأتقى لطــراوة ذكــره بين النــاس وقد يعــتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والاشـتغال بالعبـادة فيتخذ الـبيت سـترا على مقابحه إبقـاء على اعتقـاد النـاس في زهده وتعبده من غـير اسـتغراق وقت الخلـوة بـذكر أو فكر وعلامة هـؤلاء أنهم يحبـون أن يزاروا ولا يحبون أن يـزوروا ويفرحـون بتقـرب العـوام والسـلاطين إليهم واجتمـاعهم على بابهم وطرقهم وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له كما حكيناه عن الفضيل حيث قال وهل جئتني إلا لأتزين لك وتتزين لي وعن حـاتم الأصم أنه قـال للأمـير الـذي زاره حـاجتي أن لا أراك ولا تـراني فمن ليس مشـغولا مع نفسه بـذكر الله فاعتزاله عن النـاس سـببه شـدة اشتغاله بالناس لأن قلبه متجرد للالتفـات إلى نظـرهم إليه بعين الوقـار والاحـترام والعزلة بهــذا السـبب جهل من وجــوه أحـدها أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه إذ كان علي رضي الله عنه يحمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول لا ينقص الكامل من كماله ما جر من نفع إلى عياله وكــــان أبو هريـــــرة وحذيفة وأبي وابن مسـعود رضي الله عنهم يحملـون حـزم الحطب وجـرب الـدقيق على أكتـافهم وكـان أبو هريرة رضي الله عنه يقول وهو والي المدينة والحطب على رأسه طرقـوا لأمـيركم وكـان سيد المرسلين صـلى الله عليه وسـلم يشـتري الشـيء فيحمله إلى بيته بنفسه فيقـول له صـاحبه أعطـني أحمله فيقـول صـاحب الشـيء أحق بحمله حـديث كـان يشـتري الشـيء ويحمله إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطني أحمله فيقول صـاحب المتـاع أحق بحمله أخرجه أبو يعلى من حـديث أبي هريـرة بسـند ضـعيف في حمله السـراويل الـذي اشـتراه وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يمر بالسؤال وبين أيـديهم كسر فيقولـون هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويـركب ويقـول إن الله لا يحب المســتكبرين الوجه الثــاني أن الــذي شــغل نفسه بطلب رضا النــاس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عـرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنـون عنه من الله شيئا وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضـار سـواه وأن من طلب رضا النـاس ومحبتهم بسـخط الله سـخط الله عليه وأسـخط عليه النـاس بل رضا النـاس غاية لا تنـال فرضا الله أولى بالطلب ولذلك قال الشافعي ليـونس بن عبد الأعلى والله ما أقـول لك إلا نصحا إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل فانظر مـاذا يصـلحك فافعله ولـذلك قيل من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقــال له اعمل كذا وكذا لشيء أمره به فقال يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس فالتفت إلى أصحابه وقال لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين عبد تسقط النـاس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه وأن أحدا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه وعبد سـقطت نفسه عن قلبه فلا يبـالي بـأي حـال يرونه وقـال الشـافعي رحمه الله ليس من أحد إلا وله محب

ومبغض فـــإذا كـــان هكـــذا فكن مع أهل طاعة الله وقيل للحسن يا أبا ســـعيد إن قوما يحضــرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع ســقطات كلامك وتعنيتك بالســؤال فتبسم وقــال للقائل هون على نفسك فإني حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت وما حدثت نفسي بالسلامة من النـاس لأني قد علمت أن خـالقهم ورازقهم ومحـييهم ومميتهم لم يسلم منهم وقال موسى عليه السلام يا رب احبس عني ألسنة النـاس فقـال يا موسى هذا شيء لم أصطفه نفسي فكيف أفعله بك وأوحى الله سـبحانه وتعـالى إلى عزير إن لم تطب نفسا بأني أجعلك علكا في أفواه الماضـغين لم أكتبك عنـدي من المتواضـعين فـإذن من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في عنــاء حاضر في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون فـإذن لا تسـتحب العزلة إلا لمسـتغرق الأوقـات بربه ذكــرا وفكــرا وعبــادة وعلما بحيث لو خالطه النــاس لضــاعت أوقاته وكـثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته فهذه غوائل خفية في اختيـار العزلة ينبغي أن تتقى فإنها مهلكـات في صور منجيـات الفائـدة السـابعة التجـارب فإنها تسـتفاد من المخالطة للخلق ومجـاري أحوالهم والعقل الغريـزي ليس كافيا في تفهم مصـالح الـدين والـدنيا وإنما تفيـدها التجربة والممارسة ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب فالصبي إذا اعتزل بقي غمرا جاهلا بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك ويحصل بقية التجــارب بســماع الأحــوال ولا يحتــاج إلى المخالطة ومن أهم التجــارب أن يجـرب نفسه وأخلاقه وصـفات باطنه وذلك لا يقـدر عليه في الخلـوة فـإن كل مجـرب في الخلاء يسر وكل غضــوب أو حقــود أو حســود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه وهـــذه الصفات مهلكات في أنفسـها يجب إماطتها وقهرها ولا يكفي تسـكينها بالتباعد عما يحركها فمثال القلب المشـحون بهـذه الخبـائث مثـال دمل ممتلىء بالصـديد والمـدة وقد لا يحس صـاحبه بألمه ما لم يتحـرك أو يمسه غـيره فـإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صـورته ولم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السـلامة ولم يشـعر بالـدمل في نفسه وأعتقد فقـده ولكن لو حركه محـرك أو أصـابه مشـرط حجـام لانفجر منه الصـديد وفـار فـوران الشـيء المختنق إذا حبس عن الاسترســـال فكـــذلك القلب المشـــحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك وعن هـذا كـان السـالكون لطريق الآخرة الطـالبون لتزكيه القلـوب يجربـون أنفسـهم فمن كـان يستشـعر في نفسه كبرا سعى في إماطته حتى كان بعضهم يحمل قربة مـاء على ظهـره بين النـاس أو حزمة حطب على رأسه ويـتردد في الأســواق ليجــرب نفسه بــذلك فــإن غوائل النفس ومكايد الشـيطان خفية قل من يتفطن لها ولـذلك حكي عن بعضـهم انه قـال اعـدت صـلاة ثلاثين سنة مع أني كنت أصليها في الصف الأول ولكن تخلفت يوما بعذر فما وجـدت موضـعا في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر النـاس إلي وقد سـبقت إلى الصف الأول فعلمت أن جميع صـلواتي الـتي كنت أصـليها كـانت مشـوبة بالريــاء ممزوجة بلــذة نظر النــاس إلى ورؤيتهم إيــاي في زمــرة الســابقين إلى الخــير فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في اسـتخراج الخبـائث وإظهارها ولـذلك قيل السـفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة وستأتي غوائل هذه المعاني ودقائقها في ربع المهلكات فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير وبالعلم بها يزكو العمل القليل ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد للصلاة إلا أفضل من الصلاة فإنا نعلم أن ما يراد لغيره فـإن ذلك الغـير أشـرف منه وقد قضى الشـرع بتفضـيل العالم على العابد حتى قال صـلى الله عليه وسـلم فضل العـالم على العابد كفضـلى على أدنى رجل من أصــحابي حــديث فضل العــالم على العابد كفضـــلي على أدنى رجل من أصحابي تقدم في العلم فمعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة اوجه أحدها ما ذكرناه والثاني عموم النفع لتعدي فائدته والعمل لا تتعـدى فائدته والثـالث أن يـراد به العلم بالله وصـفاته وأفعاله فــذلك أفضل من كل عمل بل مقصــود الأعمــال صــرف القلــوب عن الخلق إلى الخالق لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبته فالعمل وعلم العمل مرادان لهـذا العلم وهذا العلم غاية المريدين والعمل كالشرط له وإليه الإشارة بقوله تعـالى إليه يصـعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فالكلم الطيب هو هـذا العلم والعمل كالحمـال الرافع له إلى

مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع وهـذا كلام معـترض لا يليق بهـذا الكلام فلـنرجع إلى المقصـــود فنقـــول إذا عـــرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ بل ينبغي أن ينظر إلى الشـخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى البـاعث على مخالطته وإلى الفـائت بسـبب مخالطته من هـذه الفوائد المـذكورة ويقـاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل وكلام الشـافعي رحمه الله هو فصل الخطـاب إذ قـال يا يـونس الإنقبـاض عن النـاس مكسـبة للعـداوة والإنبسـاط إليهم مجلبة لقرنـاء السـوء فكن بين المنقبضوالمنبسط فلـذلك يجب الاعتـدال في المخالطة والعزلة ويختلف ذلك بالاحوال وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل هـذا هو الحق الصـراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر وإنما هو إخبـار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ولا يجـوز أن يحكم بها على غيره والمخالف له في الحال والفرق بين العالم والصوفي في ظـاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف اجوبتهم في المسـائل والعالم هو الذي يـدرك الحق على ما هو عليه ولا ينظر إلى حـال نفسه فيكشف الحق فيه وذلك مما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبداوالقاصر عن الحق كثير لا يحصى ولذلك سـئل الصـــوفية عن الفقر فما من واحد إلا وأجـــاب بجـــواب غـــير جـــواب الآخر وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه إذ الحق لا يكون إلا واحدا ولذلك قال أبو عبد الله الجلاء وقد سـئل عن الفقر فقـال اضـرب بكميك الحائط وقل ربي الله فهو الفقر وقـال الجنيد الفقير هو الذي لا يسأل احدا ولا يعارض وإن عورض سكت وقال سهل بن عبد الله الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر وقال آخر هو أن لا يكون لك فإن كـان لك فلا يكـون لك من حيث لم يكن لك وقال إبراهيم الخواص هو ترك الشكوى وإظهار اثر البلوى والمقصـود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان وذلك كله حق من وجه فإنه خـــبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه ولـــذلك لا نـــرى اثـــنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما في التصـوف أو يثـني عليه بل كل واحد منهم يـدعي أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه لأن اكـثر تـردده‍م على مقتضى الأحـوال الـتي تعـرض لقلـوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتـون إلى غـيرهم ونـور العلم إذا أشـرق أحـاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال بـالنظر في الظل فقال بعضهم هو في الصـيف قـدمان وحكي عن آخر أنه نصف قـدم وآخر يـرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقـدام وحكى عن آخر أنه خمسة أقـدام وآخر يـرد عليه فهـذا يشـبه أجوبة الصـوفية واختلافهم فـإن كل واحد من هـؤلاء أخـبر عن الظل الـذي رآه ببلد نفسه فصدق في قوله وأخطأ في تخطئته صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلـده كما أن الصوفي لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه والعالم بالزوال هو الذي يعـرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكـام مختلفة في بلاد مختلفة ويقـول في بعضها لا يبقى ظل وفي بعضها يطول وفي بعضها يقصر فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة فـإن قلت فمن آثر العزلة ورآها أفضل له وأسـلم فما آدابه في العزلة فنقـول إنما يطـول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتـاب آداب الصـحبة وأما آداب العزلة فلا تطول فينبغي للمعـتزل أن ينـوي بعزلته كف شر نفسه عن النـاس أولا ثم طلب السـلامة من شر الاشـرار ثانيا ثم الخلاص من آفة القصـور عن القيـام بحقـوق المسلمين ثالثا ثم التجـرد بكنه الهمة لعبـادة الله رابعا فهـذه آداب نيته ثم ليكن في خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر ليجتني ثمرة العزلة وليمنع الناس عن أن يكـثروا غشـيانه وزيارته فيشـوش أكـثر وقته وليكف عن السـؤال عن أخبـارهم وعن الإصـغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البـذر في الأرض فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض وأحد مهمـات المعـتزل قطع الوسـاوس الصـارفة عن ذكر الله والأخبـار ينـابيع الوسـاوس وأصـولها وليقنع باليسـير من المعيشه وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم وليكن صبورا على ما يلقاه من أذى الجيران وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثنـاء عليه بالعزلة أو قـدح فيه بترك الخلطة فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة وحـال اشـتغال القلب به لا

بد أن يكون واقفا عن سـيره إلى طريق الآخـرة فـإن السـير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب وإما بـالفكر في جلال الله وصـفاته وأفعاله وملكـوت سـمواته وأرضه وإما بالتأمل في دقــائق الأعمــال ومفســدات القلــوب وطلب طــرق التحصن منها وكل ذلك يستدعى الفراغ والاصـغاء إلى جميع ذلك مما يشـوش القلب في الحـال وقد يتجـدد ذكـره في دوام الـذكر من حيث لا ينتظر وليكن له أهل صـالحة أو جليس صـالح لتسـتريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية السـاعات ولا يتم له الصـبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهمكون فيه ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بـأن لا يقـدر لنفسه عمـرا طـويلا بل يصـبح على أنه لا يمسي ويمسى على أنه لا يصـبح فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخى الاجل وليكن كثير الـذكر للمـوت ووحـدة القـبر مهما ضـاق قلبه من الوحـدة وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله عليه ورحمته كما قـــــال الله تعـــــالى في الشهداء ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحيـاء عند ربهم يرزقـون فـرحين بما آتـاهم الله من فضـله وكل متجـرد لله في جهـاد نفسه فهو شـهيد مهما أدركه المـوت مقبلا غـير مـدبر فالمجاهد من جاهد نفسه وهـواه حـديث المجاهد من جاهد نفسه وهـواه أخرجه الحاكم من حديث فضـالة بن عبيد وصـححه دون قوله وهـواه وقد تقـدم في البـاب الثالث من آداب الصـحبة كما صـرح به رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم والجهـاد الأكـبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم رجعنا من الجهاد الأصـغر إلى الجهـاد الأكبر يعنون جهاد النفس تم كتاب العزلة ويتلوه كتاب آداب السفر والحمد لله وحده.